الفصل الرابع

شخصية النبي محمد

" ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ .. أأقول ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم ؟! لا، لاأقول ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه ، إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبي صدق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

○ الإمام : محمد عبده

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها ، كأنما الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء ، وكان الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس ، أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من علط الحياة وتحريف الإنسانية .

○ مصطفى صادق الرافعي

لم يعد الناس في القرن الواحد والعشرين ، وبعد مضي أكثر من ألف وأربعمائة عاما من هجرة الرسول - ﷺ - قانعين ومقتنعين بأن نقص عليهم مواقف أو أطراف من حياة النبي ، أو قول من أقواله أو حديث من أحاديثه ، أو أن يقف خطيب أو متحدث أو شاعر ليبث المستمعين أو القارئين خطبة أو مقالا أو قصيدة في حب ومدح الرسول ، ثم نطالب الناس بعد ذلك أن يحبوا الرسول ويطيعوه ويؤثروه عمن سواه . " وقد تعود الناس أن يقرأوا سيرة محمد رسول الله معروضة عليهم عرضا ترتاح إليه إليه نفس الرجل المسلم الذي يؤمن بأن محمدا هو رسول الله وخاتم النبيين المبعوث لهداية الجنس البشري ، أما سيرة الإنسان الذي يلقي بنفسه في زحمة الحياة ويضطرب فيها كما يضطرب البشر ، فيأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون ، ويحب ويبغض كما يحبون ويبغضون ويشعر كما يشعرون ، ويجاهد نفسه كما يجاهدون ، وتستولي عليه الغرائز التي تستولي عليهم وتحكمه البيئة بما فيها من عادات وتقاليد ووارثات كما تحكمهم - أقول - أما هذه السيرة التي تدرس لنا حياة محمد بشر يضبط مشاعره ويقوم نفسه ويعمل على تخليصها من رواسب العادات وضلالات الوراثة وانحراف البيئة ، فإن الناس لم يشهدوها . ولا ريب أن في هذا السرد لحياة رسول الله وحشوها بالخوارق والمعجزات إبعادا للفئة التي لا تدين بالإسلام عن معرفة محمد وصدا لها عن الإيمان به والوقوف على ما قدمه للبشرية من خير ، وإدراك هذا الانقلاب الثوري الهائل الذي قام به فهز أركان المجتمع القديم القائم على العسف والظلم والاستعباد والفساد الذي ينزل بالإنسان عن إنسانيته .

لهذا كان الخير أن نعرض حياة محمد على الناس وأن نسلط عليها أضواء العلم وأن نتناولها بالتحليل والدراسة الدقيقة حتى يستطيع غير المسلم أن يقرأها

كما يقرأ سير المصلحين والعظماء في الأمم ، وأن يكون لمحمد مكانة رفيعة في قلبه تحمله على أن يوثق الصلة به وأن يتوسع في دراسة سلوكه وفي هذا أعظم الخير".[٥٦]

كذلك لا يكفي أن نصور لهم حب الصحابة للرسول حبا عظيما إلى الدرجة التي كانوا يؤثرونه على أنفسهم ، بل ويفدونه بأرواحهم ، فهم قد وصلوا إلى تلك الدرجة من الحب والإيثار لأنهم عايشوه ، خبروه ، عرفوه ، لمسوه بجوارحهم وأفئدتهم من لحم ودم وأعصاب ، طعموا معه وشربوا ، مروا معه بلحظات عصيبة وأزمات ومآزق زلزلتهم زلزالا ، كذلك مروا معه بأوقات عظيمة من الظفر والنصر ، شعروا خلالها بالعزة والكبرياء ، - كذلك - قادهم الرسول ، وأخذ بأيديهم حتى نالوا رضوان الله ، وأثنى عليهم في كتابه الكريم ، وتلك منزلة لم يكن ليقدر لهم أن يصلوا إليها لولا رسول الله - ﷺ - ، لماذا لا يحبونه ، وهو النور الذي أضاء لهم ظلمات ودياجير حياتهم ؟ لماذا لا يحبونه وهو المنقذ الذي أنقذهم من الغرق في مستنقعات الكفر والوثنية ؟ لماذا لا يحبونه وهو الذي هداهم إلى عزة الخضوع لله الواحد الأحد؟ لماذا لا يحبونه وهو الذي أرشدهم إلى راحة وطمأنينة واستقرار القلوب والضمائر بسبب إيمانها بخالق الكون ومبدع الوجود ؟ .

إنهم يعرفون فضل الرسول حق المعرفة ، لأنهم قارنوا ما بين حياتهم ووجودهم قبل الرسول ، وحياتهم ووجودهم بعد الرسول . كل هذا وغيره جعل قلوب الصحابة تستنير حياتهم بحب الرسول .

بينما ما ينقل إلى الناس - الآن - أو جل ما يصلهم بالرسول مواقف وأفعال وأقوال وأحاديث !

وكل هذا - على جلاله وعلو شأنه - ليس النبي محمدا !

فليست أقوال وأفعال ومواقف محمد - ﷺ - ليست هي محمدا ، " إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورا خفيفة لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم .

٥٦- من حياة محمد- دراسة تحليلية على ضوء علم النفس - د بد الحليم محمد محمود - صفحة (١١-١٢)

هم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو اتافه تساوي الجهل بها ، إنه من الظلم للحقيقة الكبرى أن تتحول إلى أسداءرة خارقة ، ومن الظلم لفترة نابضة بالحـ اة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى . إن حياة محمد ليست – بالنسبة للمسلم - مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأي حيف في عرض هذه السيرة ، وأي خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه " [٥٧] .

فلا يمكن أن تغني تلك الأقوال والأفعال والمواقف عنه ، ولن يصلني كل هذا به ، لأني قد أعجب بالأقوال ، وأحب الأفعال ، وتهزني المواقف ، ولكن مازالت شخصية محمد بعيدة عني ، وأنا بعيد عنها ، إن هدا مثل قطرة ماء من محيط واسع زاخر ، فمحال أن تصور أو تجسد تلك القطرة لي المحيط باتساعه وعمقه وجلاله ورهبته ، أو تنقل لي ما في جوفه من آلاف بل ملايين الأحياء والمخلوقات والكائنات على مختلف الأشكال والأنواع والأجناس !

فنحن لا نعرف ولا ندرك صورة كاملة مكتملة عن شخصية الرسول ، كل ما هنالك خبر من هنا ، وقول من هناك ، موقف من مواقفه العظيمة ، أو مأزق أو أزمة من التي مر بها في حياته المباركة ، آيات قرآنية كريمة جاء فيها ذكر الرسول بالثناء والمدح ، أو باللوم والعتاب ... أمور متفرقة وشئون مشتتة لا يجمعها رابط ، ولا يضمها جامع سوى أن موضوعها عن رسول الله .

هذه المعرفة وهذا الإدراك مضران أكثر مما هما نافعان !

لأنهما دافعان للابتعاد العقلي والوجداني عن الرسول أكثر مما هما محضان ودافعان إليه ، " هل عرف المسلمون محمدا – ﷺ – معرفة تدفعهم إلى

٥٧- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٧)

أن يأخذوا أنفسهم بإتباعه والسير على نهجه والتأسي بسلوكه ؟!إني أشك في أن كثيرا من المسلمين درسوا حياة محمد دراسة يقصدون من ورائها إلى اعتبار سلوكه ميزانا يزنون به سلوكهم ، ويربون به أنفسهم . إن كثيرا منهم يكتفون بإطراء خلق محمد ومعاملة محمد واتجاهات محمد النفسية والاجتماعية ، ولا يحاول أحدهم أن يخرج من هذا الجانب السلبي الضيق إلى ميدان العمل الشخصي الفسيح في الحياة مترسما خطى هذا النبي في سلوكه . وقد يغالى بعضهم فيرتفع بمحمد عن حدود البشرية ويسبغ عليه أوصافا هو براء منها "[٥٨]

فهنا – وبصفة خاصة – العلم المبتور والإدراك الناقص لا يغنيك عن العلم الكامل والإدراك التام ؛ لأنك إذا علمت عن الرسول بعض الأشياء ، وجهلت أشياء أخرى ستتكون لديك صورة غير مكتملة وغير تامة عن شخصية الرسول ، وهذا – في حد ذاته – لا يليق بالرسول الكريم أن تكون له صورة غير كاملة وغير مكتملة والواجب أن تكون له صورة كاملة ومكتملة .

ولا يليق بك أن تكون لديك تلك الصورة ، وفي إمكانك أن تكون لديك الصورة الكاملة المكتملة .

وكتاب السيرة منذ أن بدءوا يسجلون سيرته – ﷺ – لم يغفلوا شاردة ولا واردة ، ولم يهملوا كبيرة ولا صغيرة ، ولم يتركوا شيئا عظيما أو هينا ، إلا وسجلوه تسجيلا صادقا أمينا على قدر وسعهم من التحقق والتثبت ، ولم يطفر أحد سواء كان نبيا أو رسولا أو بطلا أو عظيما من الاهتمام مثلما ظفر محمد ، وربما لم تصبح ((السيرة)) على هذا الوضع والشكل من الدقة والشمول والتثبت والتمحيص ومراعاة كافة التفاصيل الزمانية والمكانية والأطوار والحالات النفسية والعقلية للأشخاص ، إلا حينما ارتبطت بمحمد – ﷺ – فكتاب السيرة بصفة عامة قد أظهروا الأشخاص الذين كتبوا عنهم ببعد واحد ، أو جسدوهم وأظهروهم كما يجسد

٥٨-من حياة محمد – دراسة تحليلية على ضوء علم النفس – د . عبد الحكيم محمد محمود – صفحة (١٠)

المثال تمثاله ، شكل يطابق الأصل ، ولكنها مطابقة جامدة ، ميتة ، لا حياة لا حياة فيها ، ولكن كتاب سيرة ((محمد)) حاولوا – وقد وفقوا في مرات كثيرة – أن تأتي صورة ((محمد)) حية نابضة بالحركة والإيماءة والإشارة " عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل ، غير أننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد ﷺ من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكي للمتفرسين شيئا من طبائعهم التي تنم عليها سيماهم ، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته ، في سيماه وهي هندامه ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه وحله ومقامه وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه أحبوه وأحبوا ان يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين ، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى فيقول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين "[٥٩]

- **مناهج السيرة .**

وتعددت طرق ومناهج أصحاب السير ، فمنهم من سرد الأحداث سردا زمنيا متسلسلا ، ومنهم من سرد الأحداث حسب أهميتها وخطورتها في حياة الدعوة وصاحبها – ﷺ – ومنهم من جمع بين الطريقتين ليخرج منهما بخير ما فيهما ، " وقد استفدت من السيرة التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

٥٩- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٦٢)

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك ، وذاك أحسن ما في طريقتهم . والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر ، لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها .

ولعلي هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كلتيهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعا متماسكا يشد أجزاءه روح واحد ، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته .

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئا ينمي الإيمان ، ويزكي الخلق ويلهب الكفاح ، ويغري باعتناق الحق والوفاء له ، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله " [٦٠]

ومنهم من أهتم بالغزوات والحروب التي خاضها الرسول .

كما أن كتب السيرة منها ما جاء حافلا بكل ما روي عن رسول الله ، بدون تدقيق أو غربلة وتمحيص ، وجاء – في العصر الحديث – من اعتمد على هذه الكتب التي يختلط فيها الغث بالسمين ، ليؤسس ويقيم أحكاما تجافي المنطق وتخالف العقل " أن أول كتب السيرة إنما كتب بعد قرنين من عصر محمد ، دست أثناءها ألوف الأحاديث المكذوبة . ومع أن المستشرقين يقررون هذه الحقيقة تراهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرروا أمورا يعتبرونها صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها من ذلك مسألة الغرانيق ومسالة زيد وزينب ومسألة أزواج النبي " [٦١]

٦٠- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٨)
٦١- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (٤٠)

ومنهم من عرض الأحداث واحتفل بما يتفق مع العقل والمنطق ، واستبعد ونفى ورفض ما لا يتفق مع جلال وعظمة الرسول ، ومنهم من عرض الأحداث عرضا حياديا ، وترك القارئ يستخلص منها ما يشاء ، ومنهم من خرج بالدلائل والعبر والعظات ، ومنهم من احتكم وحكم المنهج أو المذهب الموضوعي " ومعنى هذا أن كتاب السيرة النبوية وعلماءها ، لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة إلا تثبيت ما هو ثابت منها ، بمقياس علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن ، وفي قواعد الجرح والتعديل المتعلقة بالرواة وتراجمهم وأحوالهم .

فإذا انتهت بهم هذه القواعد العملية إلى أخبار ووقائع وقفوا عندها ودونوها ، دون أن يقحموا تصوراتهم الفكرية أو انطباعتهم النفسية أو مالوف بيئه إلى شيء من تلك الوقائع بأي تلاعب أو تحوير .

لقد كان يرون أن الحادثة التاريخية التي يتم الوصول إلى معرفتها ، ضمن نفق من هذه القواعد العلمية التي تتسم بمنتهى الدقة حقيقة مقدسة ، يجب أن تجلى أمام الأبصار والبصائر كما هي كما كانوا يرون أن من الخيانة التي لا تغتفر أن ينصب من التحليلات الشخصية والرغبات النفسية التي هي في الغالب من انعكاسات البيئة ومن ثمار العصبية ، حاكم مسلط يستبعد منها ما يشاء ويحور فيها كما يريد .

ضمن هذه الوقاية من القواعد العلمية ، وعلى ذلك الأساس من النظرة الموضوعية للتاريخ ، وصلت إلينا سيرة المصطفى ﷺ ، بدءا من ولادته ونسبه ، إلى طفولته ، فصبوته اليافعة ، إلى الارهاصات الخارقة التي صاحبت مراحل طفولته وشبابه ، إلى بعثته وظاهرة الوحي التي تجلت في حياته ، إلى أخلاقه وصدقه وأمانته إلى الخوارق والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يده ، إلى مراحل الدعوة التي سار فيها لتلبية أمر ربه ، من سلم فدفاع ، فجهاد مطلق حيثما طاف بالدعوة

إلى الله تعالى أي تهديد ، إلى الأحكام والمبادئ الشرعية التي أوصى بها إليه قرآنا معجزا يتلى ، وأحاديث نبوية تشرح وتبين "[٦٢] .

نعم لقد غطى كتاب السيرة هذه النواحى والجوانب من حياة الرسول بكل مقدرة وكفاءة يحدوهم الإخلاص والحب والتفاني ، لا أحد ينكر ذلك ، ولكن لم نر - فيما نعلم - من خرج علينا بصورة مكتملة لشخصية الرسول ، وملامح تلك الشخصية سواء كانت ملامح فكرية أو عقلية ، وجدانية أو نفسية ، مسجلات لحظات اليأس والإحباط والحزن ، والقلق والتوتر والضيق ، أو أوقات السعادة والفرج والتفاؤل والاستبشار والظفر والنصر ، أو يجلو جوانب وأدوار ومراحل تطور ونمو تلك الشخصية العظيمة ، وكيف أثرت التجارب والمآزق والأزمات التى تعرض لها في شخصيته ، وكيف أسهم كل هذا في نضج وصقل والارتقاء بالشخصية .

نعم هناك من كتب عن محمد الرجل ومحمد الأب ومحمد الزوج ومحمد الثائر ومحمد القائد ومحمد المؤسس ، ولكن كان كل جانب من تلك الجوانب منفصلا ومستقلا عن الآخر ، لم تتجمع كل تلك الجوانب ولم تتضافر لتكون في النهاية صورة كاملة للشخصية ، فكل تلك جوانب من شخصية محمد ، نواحى من شخصيته ، ولكن ليست شخصيته ، وأنت إذا تحدثت عن جانب من جوانب الشخصية وأغفلت الشخصية ككل ، فقد اختزلت واجتزأت واختصرت ، وكل هذا ظلم وغبن للشخصية ؛ لأنك لم توفها حقها ، وكان في الإمكان أن توفي ، وظلم وغبن للقارئ ، لأنك أعطيته شيئا غير تام ، وكان في الإمكان إتمامه ، ومنحته شيئا غير كامل ، وكان في الإمكان إكماله .

ربما لم يسلكوا هذا المسلك لعدة أمور منها ،

أن شخصية الرسول محاطة بهالة من الإجلال والتقديس ، تلك الهالة تمنع الكتاب من الاقتراب وإذا اقتربوا فبحرص وحذر وخوف ووجل ، وهذا يدفعهم

٦٢- فقه السيرة - د . محمد سعيد رمضان البوطي - صفحة (٢٢)

إلى رسم صورة مثالية ، أو الإقرار بمثالية شخصية الرسول ، وأنت إذا تحدثت أو رسمت صورة مثالية لشخص – ناهيك عن الرسول – فقد انتهيت من حيث بدأت ، ولم تضف شيئا ، لاسيما وإذا كان لهذا الشخص فعلا – في الأذهان والضمائر – تلك الصورة المثالية التي تتحدث عنها ، بل أن بحديثك هذا قد لا تصل إلى ما هو ماثل ومجسد بالفعل في النفوس والقلوب ، وإنما يجب – في تلك الحالة – أن ينصب حديثك على هذا الأسلوب أو تلك الطريقة أو المراحل التي مر بها الشخص ، وتلك المجاهدات والمحاولات والمآزق والأزمات التى اجتازها الشخص ليصل إلى تلك الصورة المثالية ، من منطلق إنساني بحت ، والمنطلق الإنساني هو الذي سيفتح مجالا من المشاركة بينك وبين الشخصية والتعاطف والاقتداء وليس عليك بعد ذلك أن ترسم الصورة المثالية ، وتجسد ملامحها وتحدد سماتها وتبين مميزاتها ، بل اترك الآخرين يفعلون ذلك ، وكل فرد – بعد ذلك – قادر على أن يصل إلى أقصى آماد التمام والتكامل للشخصية ، " ولسنا نخشى أن نعرض لحياة محمد بالدرس والتحليل ، فإنه ليس فيها – بحمد الله – ما يخافه المسلم على نبيه لأن حياته الكريمة ليست ملكا للمسلمين وحدهم ، بل هي ملك للبشر جميعا يدرسونها ويفتشون فيها ، وينقبون في زواياها ، ويظهرون خفاياها وينشرونها على الناس ، فيفوح أريجها العطر وتسطع أضواؤها الباهرة " [٦٣].

- أن أعمال وأفعال ومواقف الرسول كانت من الوضوح والجلاء بحيث لم يكن هناك داع أو مبرر لسبك أو استخلاص شخصية للرسول من كل تلك المواقف والأفعال ، فليس هناك غموض ولا إبهام ، ولا مناطق ظل أو أشياء خفية أو متوارية ، ليحاول أحد توضيح هذا الغموض أو تجلية هذا الإبهام أو إظهار هذا المخفى أو كشف هذا المتوارى .

٦٣- من حياة محمد – دراسة تحليلية على ضوء علم النفس – د . عبد الحليم محمد محمود – صفحة (١٣)

- العقلية التي جمعت وصنفت وسجلت وكتبت وفحصت ، لم يكن من طموحاتها أو أهدافها استخلاص نمط أو طراز أو نوع شخصية الرسول أو رد كل تلك الأفعال والمواقف والأقوال إلى جوهر واحد أو تعليلها بسبب صدورها عن مصدر واحد لا يختلف مهما اختلفت المواقف والقضايا والأحداث .
- عدم توافر الأساليب والأدوات والنظريات العلمية التي تعين على تلك الدراسة ، لاسيما وأن الأمر لم يكن له سوابق يعتمد عليها ، أو أن الطرق قد مهدت أو حتى سويت ليطمئن إلى السير فيها ، فعلم النفس وعلم دراسة الشخصية لم يصلا إلى نتائج مرضية يحسن الركون والاطمئنان إليها .
- من العسير شخصنة الإنسان العادي ، بمعنى حصر كل أفعاله وتصرفاته وأفكاره وأرائه داخل نمط شخصي معين ، هذا النمط يفسر ويوضح الدوافع والمحرضات لتلك التصرفات والأفعال ، أو أن تلك الأفعال والتصرفات تندرج بصدق وحق تحت هذا النمط ، وهذا العسر للشخصنة راجع إلى أنك في حاجة ماسة لمعرفة هذا الإنسان معرفة يقينية ، بمعنى لا يخفى عليك شيء مما يصدر عنه من قول أو فعل ، لأنه ربما فعل أو قول أو رأي خفي عنك يكون عليه المحور أو المركز أو النواة للشخصية ، والتي بدونها يغيب عنك أهم شيء يعينك في دراسة الشخصية . فإذا كان هذا حادثا على مستوى الإنسان العادي ، فما بلك بشخصية النبي ، فشخصيته ثرية ثراء لا حدود له ، فهل سندرس شخصيته كإنسان عادي ، أم سندرسه كنبي ؟ فإذا درسناه كشخصية إنسان عادى ، فهو ليس كذلك وإذا درسناه كنبي ، فإن النبوة ظاهرة إنسانية فلا نستطيع أن نتصور النبي – أي نبي – مستقلا عن الجانب الإنساني ، على هذا فلابد من دراسة

الإنسان في النبي ودراسة النبي في الإنسان ، وهذا – في حد ذاته – أمر في غاية العسر ، لأنك لا تدري أين ومتى تبدأ النبوة ،ويتراجع الإنسان ؟ ولا أين ومتى يبدأ الإنسان وتتوقف النبوة ، وما تأثير كل منهما في الآخر ؟

لتلك الأسباب التي ذكرناها لم تتوافر دراسة تتناول شخصية الرسول كوحدة مستقلة ونظام متكامل ، وربما يسأل سائل ... وما جدوى تلك الدراسة ؟ وما الجديد فيها ؟ .

أما جدواها : البعض يظن أن محمدا – ﷺ – في كل ما يفعل وما يقول إنما يصدر عن الوحي ، وأن كل المشاكل والمآزق والأزمات التي كانت تعترضه وتعترض الدعوة ، كان يتوقف ويجمد كل شيء منتظرا أمر الوحي ، وما يشير به أن يفعله أو يقوله ، وهذا الظن ، يخالف الواقع ، ويعارض نمط وطراز شخصية الرسول فأغلب أفعال وأقوال وتصرفات الرسول كإنسان له فكره واجتهاده ، والدليل على ذلك أمران :

الأول : مشاورته أصحابه ، وكانت لتلك المشاورات ، وما صدر عنها قرارات مصيرية نصيب كبير في حياة الإسلام والمسلمين .

الثاني : هناك أحداث ومواقف خالف الوحي فيها اجتهاد الرسول ، جاء الوحي مصوبا ومقوما ومصححا ما أخذ به الرسول .

إذن لم يكن محمد – ﷺ – مقيدا أو جامدا في أفعاله وأقواله ، منتظرا أن يأتي الوحي ليهديه ويرشده ويوجهه ، وإنما كان يتصرف وفق شخصيته ووفق أفكاره واجتهاداته . وهذا جانب أعظم في شخصية الرسول ، والآيات الكريمة التي خالفت اجتهاد الرسول ، وتضمنت شيئا من العتاب واللوم والمراجعة ، لتشير بطريق غير مباشر – ولكنه مؤكد وصادق وواضح – إلى هذا الجانب في شخصيته ونسأل هنا ... ما ضر الرسول لو انتظر ما يشير به الوحي في كل كبيرة وصغيرة ؟

لو شاءت إرادة الله لسبق الوحي كل أفعال وأقوال الرسول . ولكن تأبى عظمة الرسول ألا ينتظر وألا يتوقف وألا يجمد . وإنما يندفع بكل جرأة وقوة مستلهما فكره وعقله . متخذا قراراته بكل حزم وحسم ؛ لأنه يعلم من حوله كيفية التصرف واتخاذ القرارات .

وتشاء إرادة الله أن تمنح الرسول مساحة واسعة يجتهد فيها وفق بشريته وإنسانيته .

إذا أدركنا بعمق ووعي هذا الجانب في شخصية الرسول . سنصل إلى منزلة الإعجاب . والإعجاب سيصل بنا إلى مرتبة الحب . وإذا وصلنا إلى مرتبة الحب سيساعدنا هذا في تجسيد صورة وشخص الرسول . وإذا استطعنا تجسيد صورة الرسول سنعرف أبعاد وجوانب الشخصية . وإذا وصلنا إلى ذلك أمكننا أن ننظر إلى الرسول كبشر أمامنا . من لحم ودم وأعصاب . يتحرك أمامنا ملؤه الحياة والحيوية . نسمع صوته آتيا لنا من أعماق الضمير . نلمح إيماءاته . نبصر إشاراته ندرك مغزى أفعاله ومدلول تصرفاته . نشم رائحته الطيبة . نجلس معه . نحدثه ويحدثنا . نسأله ويجيبنا . نحاوره ويحاورنا . إنه منا ونحن منه . وهو - لا شك - يحبنا . لأن جوهر شخصيته الحب . ونحن نحبه . حب فكر وعقل ووجدان وضمير وطاعة .

أما الجديد : كل جوانب شخصية الرسول تامة ومستوفاة . فإذا نظرت إليه كإنسان . ستجد الإنسانية في صورتها الكاملة التامة المستوفاة .

وإذا نظرت إليه كزوج ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كأب ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كصاحب ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كبشر ستجده كذلك .

ليس هناك نقص في أي جانب من تلك الجوانب ، وهذا التمام والاستيفاء ثابت ومستقر ، وليس متذبذبا أو متأرجحا ، فليس للأحداث والظروف والتغيرات أن تؤثر على درجة التمام والاستيفاء ، فهو أمين - مثلا - في حالة رضاه ، وفي حالة غضبه ، مع من يحب ، ومع من يكره ، وكذلك جميع صفاته ، لأن تلك الصفات أصيلة في طبعه ، هو لا يتكلفها ، ولا يحاول إيجادها أو الاستزادة منها ، أو محاولة استدامتها ، إنها تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس ، والنور عن القمر .

الأهم من كل هذا والأعظم ، أن هناك توازن أو تعادل بين تلك الجوانب ، فلا جانب يطغى على الآخر ، ولا جانب يتسيد ويهيمن على الجوانب الأخرى ، كل جانب تحقق بنسب متعادلة ومتوازنة مع بقية الجوانب ، وفي النهاية كل تلك الجوانب هي مزاج شخصية الرسول .

وظن البعض أن الرسول في بيته يكون مشغولا بأمور الدعوة ، وهي أمور يشيب لها الولدان ، وسألوا : ماذا يفعل الرسول في بيته ، فعرفوا أنه يمارس حياته في بيته كزوج ورب أسرة مثل غيره ، يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ويكون في خدمة أهله .... الرجل الذي غير العالم ، ويغيره ، وسيغيره ، يرقع ثوبه ويخصف نعله ، أليس هو القائل : ((إن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا وإن لربك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه)).

وقد ذكر لنا التاريخ عظماء وأبطال نذروا أنفسهم لشيء ونبغوا فيه نبوغا كبيرا وخلدهم التاريخ ، ولكن هذا النبوغ وهذا التفوق كان على حساب جوانب أخرى من شخصياتهم ، فقد أهمل كل منهم نواحي هامة من شخصيته ، وسخر وجوده كله لتحقيق شيء واحد ، وهذا في حد ذاته نقص في الشخصية أو اختلال أو اضطراب ، ولا يحسب هذا النبوغ والتفوق للشخصية وإنما هو عليها ، لأن الانجاز الحقيقي أن لا تهمل جانبا واحدا من جوانب الشخصية ، وأن تحقق المعادلة الصعبة ، وهي التوازن بين حاجات ومتطلبات الكيان الإنساني " فعندما يتحقق

التوازن في شخصية الإنسان – بإشباع – حاجات الروح والجسد – تحقق ذاتية الإنسان في صورتها الكاملة والتى تمثلت في شخصية الرسول ﷺ . فكان ﷺ يعبد الله سبحانه وتعالى حق العبادة في صفاء وخشوع . كما كان يعيش حياته البشرية كغيره من البشر يشبع حاجاته البدنية في حدود ما شرع الله سبحانه وتعالى . لذا فشخصية النبي – ﷺ – تمثل شخصية الإنسان الكامل والشخصية النموذجية . قال تعالى﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١"[٦٤]

وهذا الذي دفع الرسول لرد على هؤلاء النفر الذى أراد كل منهم أن يقصر وجوده على جانب واحد من متطلبات الشخصية الإنسانية . فقال لهم الرسول : أما أنا فأصوم وأفطر . وأتى النساء ...)).

وفي النهاية ظهرت لنا شخصية الرسول من طراز رفيع لا مثيل له في التمام والكمال . ومن هنا تحققت الأسوة الحسنة .

٦٤- الإعجاز النفسي للقرآن الكريم – د . مصطفى رجب – صفحة (٢١٢)